خاطرة

أين السلف الصالح ؟

للأستاذ أحمد عبد اللطيف بدر

قد تباده المرء أمور فيها من العجب مايبعد البادهة ، والعلم نور الله فى الصدور وهو لا يهدى لعاص ، ولا يهتدى به ضال ، ولا يسير فى هديه مضل !

وللعلم « كرامة » يجب أن ترتفع عن الشهوات ، وتخاصم الأهواء والنزعات، لكنه أرخص فى مرتخص المنافع واتضع باتضاع الخصاصة النفسية ، فأصبحت لاتجد إلا أنقاضا على هيئة شخوص لهم أناقة المظهر ، وشناعة المخبر ، وفيهم بروق النفاق ، ومروق الرياء ، وبقلوبهم شح الوفاء ، وكرم القدر ، يلبسون لكل حال لبوسها ، ويسيرون فى كل ركب ، وقد أزالوا عن نفوسهم توقر المحافظة ، وتوق المؤاخذة ، واندفعوا مع تيار الحياة ، يحتالون عليها ويتنافسون فى أسلابها ، حتى سلبوا المهابة ، وأضاعوا معانى القناعة !

أين السلف الصالح ؟ وأين مجد العلم ؟ وأين قوة الروح لدى العلماء ؟ لقد كانت بطونهم جوعى وأرواحهم شبعى ! وكانت حلوقهم ظمأى وعقيدتهم ريا ! تسابقوا فى الفضل ، ولم يتنافسوا على الفضالة ! ، وانطلقوا مع الملائكة ولم يلحقوا فى ركاب الشراهة

كانت يدهم رخصة ولم تكن رخيصة ؛ وكانت رغباتهم معززة ولم تكن ملتذة !

* * *

رحم الله عهدا تنوسيت فيه آمال ومطامح ، واتصلت فيه وشائج العلم فى أروع سوره ! أين ذهب هذا العهد ولم يتغير الزمان؟

لقد كان لى جد يدرس فى معهد دينى ، ويدرس العلم فى مسجد ، ثم يتقاضى ستين قرشا وهو عالم ممتاز ؛ ثم وثب راتبه إلى عشرة جنيهات فى مدى ثلاثين سنة !

إنه الشيخ أحمد بدر العالم الدمياطى الذى قابل الإمام محمد عبده فى أخريات حياته ، وأطلعه على كتاب فى « المنطق » جعله حسبة للراغبين ، وأخفى عليه أمر راتبه حتى علم ؛ فجازاه وهو راض قانع !

إنى لأبصره بعد خمس وثلاثين سنة — وأنا ابن سبع سنين — يجتمع فى حلقته جمع جامم يأخذ عنه ، ويقبس منه ؛ وأكاد أتبين معنى مايقول لأن علمه مشرق الروح ، وأنس القلب ، وراحة النفس ؛ فأين ذهب هذا كله اليوم ؟

* * *

لست متقصدا بهذه الإشارة الباهاة ، وإنما هادف إلى القايسة وهل ينفع القياس ؟ لقد انصرف هم العلم إلى التعالم ، واتجهت همة العالم للمغانم ؛ وذهب نور الهالة الذى كان يلمع فى الوجوه المؤمنة الآمنة ؛ فتغضى منها الأبصار !

فى الأمس القريب كانت الدعوات تترى فتهتز أعواد المنابر بالدعاء للملك الصالح المخلص فى طاعة ربه ؛ ثم بدل دليل الفساد وانطوى العهد ؛ فسكتت الألسنة بعد أن أسكتتها المباغتة وألجمتها المفاجأة ، فما الذى حال بينها وبين التلميح وهى التى تقود العامة

إن النفاق داء وبيل ، ولكنه فى قلوب العلماء آفة !

نريد أن يكون العلم ذا قرار فى القلوب ، تحصنه الهيبة ، وترفعه الكرامة ويحفظه الوقار !

نريد ترك التشدق بالألفاظ ، والتفصح فى العبارة ، والتكلف فى القدرة . نريد علما نابعاً من الإيمان ، فيه لذة الوجدان الطاهر والروح الصافى !

* * *

إن زياد ابن أبيه كان على ماكان عليه وقد قال : أيها الناس لايغركم سوء ماتعلمون منا أن تتفعوا بأحسن ماتسمعون منا ؛ فإن الشاعر يقول :

إعمل بعلمى وإن قصرت فى عملى
ينفعك قولى ولا يضرك تقصيرى

فهل يريد العلماء أن يكونوا على مذهب زياد فى أداء الرسالة !

اللهم إن العلم فى الصدور لكن العمل به فيه قهر للنفس وزجر للهوى وقتل للشهوة ، ومغاضبة الشيطان ، واقتداء بالسلف الصالح ، فمتى يفيق من استلأثت رءوسهم وقلوبهم هواء ؟

أحمد عبد اللطيف بدر